محمد علي شمس الدين

القطار

(١)

أوى الى فراشه باكرا في تلك الليلة ، بعد نهار طويل من العمل والانتقال . وحين مارس الجنس اللازم والمعتاد مع زوجته ، لاحظ انها دخلت في النوم قبل الرعشة الاخيرة ، فانسحب منها ببطء، ودخل ، بدوره في نوم شجاري ومتعب .

الغرفة السكنية الوحيدة مستسلمة كلها لسلطان النوم .السبعة الاولاد يشخرون مثل الجراء الصغيرة . كاتيا (زوجته) كذلك . وهو يلهث كثور جريح :

.. انه يركض ملتجئا الى ممر القطار . وراءه (كاتيا) وسبعة جراء صغيرة تركض مثل سبع عجلات . وفوقه شمس قريبة انفتحت رجلاها ، وحاصرته بين عمودي رقم منفرج على شكل ثمانية .

كان عليه ان يصل الى المحطة قبل ان ينطبق عليه عمودا الرقم المتحرك . هو يركض .. زوجته تركض .. الجراءالصغيرةتركض... الزاوية المنفرجة تضيق وتصبح اكثر حدة . العرق ينزف من عروقه مثل نوافير صغيرة للماء المالح ، ويكوّن فوق عينيه غشاوة تجعل المسافات امامه هلامية او متأرجحة او مائلة . مد يده ليمسح هذه الغشاوة عن عينيه ، فرأى انه علىقاب خطوتين من الاختناق ، وان بينه وبين المحطة خطوتين . لكنه وصل قبل ان ينطبق عمودا الرقم الشمسي على عنقه . وصعد في عربة الدرجة الثالثة . وصعدت خلفه (كاتيا) والجراء .

كان يود ان يصعد في عربة الدرجةالاولى ، حيث السرير المريح ، والطعام الشهي ، والشراب ، والخدمة . وكانت (كاتيا) والاولاد يريدون ذلك .. لكنه لا يستطيع ..

قال لها : ليس لدينا ثمن بطاقات للدرجة الاولى . فارغمها على الاقتناع ، لكنه بيت في نفسه امرا ، وصمم لتنفيذه :

(يريد ان يتسلل)

قالت له (كاتيا) : انا اشاغل الحارس . اغازله قليلا . واستدرجه بعيدا عن المنفذ المؤدي الى عربة الدرجة الاولى . وانتم تتسللون . قال لها مداعبا : ولكن .. اياك ان تنسجمي في دورك حتى النهاية ، وتستهويك اللعبة مع الحارس ..

قالت ، وقد غنجت بطرفها غنجا محتالا يعرفه منها في مثل هذه الحالات : هذا ما اخشاه بالفعل ..

(٢)

القطار ينسحب بوتيرة واحدة ، ويئن انينا طويلا وخافتا مثل حيوان مظلوم .

كان الرجل والاولاد مكتومين معا ، ومتربصين . وتختلط انفاسهم بانفاس عمال التراحيل المستسلمين للنوم .

اقتربت المرأة من الحارس بغنج خفي ، نظرت اليه نظرة بطيئة، اخذ اثرها الحارس من سيجارته سحبتين سريعتين ، وبدا عليهشيء من الارتباك .

ابتعدت المرأة قليلا ، فتبعها الحارس حتى وقفامعا على حافة القطار . كان ظهره الى الركاب ، بعيدا وغامضا قليلا ، والممر المؤدي الى عربة الدرجة الاولى مباحا .

تسلل الاولاد ببطء : الاول .. الثالث .. الخامس .. السابع ..

وما ان حاول الرجل اللحاق بهم ، حتى بدرت منه حركة تنبه لها الحارس ، فاقبل نحوه مهددا بهراوة غليظة ومدببة .

تدافع الرجلان بالايدي ، ولكن الشجار لم يدم طويلا . ولا يدري الرجل كيف ان زوجته حسمت القتال بدفعة قوية منها ، قذفت بالحارس نحو الباب الشرقي للقطار ، فسقط هذا على درجات المدخل ، وتدحرج الى الخارج ، حيث ارتطمت جبهته بالارضالصلبة، ولطخت بقع صغيرة من دمه حوافي العجلات .

كان لا بد من الاسراع في اللجوء الى العربة الاولى . لا بد من الانسحاب .انسل الرجل بسرعة ، تبعته زوجته ، وباشارات قليلة ، رتب عائلته على الكراسي الوثيرة : انت هنا .. انت هنا .. انتهناك ... انتم هنا .. الخ .

وجلس هادئا ، ثم تنهد بعمق ،وقال :

ـ على الاقل .. ليس هاهنا مسرح الجريمة .. وما ان احس بالطمانينة الغالبة ،حتى اصطدم رأسه بالنافذة صدمة عنيفة ، احس بعدها كان القطار خرج عن خطه ، فبدرت منه صرخة رعب قوية، ونهض على اثرها مذعورا ..

(٣)

كانت الساعة قد جاوزت السابعة والنصف بثوان ، وما زال جرس المنبه يرن بالحاح في الغرفة الصغيرة المفردة ، حين نهض الرجل خائفا ، وبدرت منه حركة قوية ايقظت زوجته الراقدة الى جانبه .

قالت له ، وهي تفرك عينيها وتتثاءب : مالك ممتقعا ومذعورا . هل أصابك مكروه ؟

قال لها ، بآلية بادية : انهضي سريعا .. انهضي .. فقد خرج القطار عن خطه . قالت له بدهشة وخوف (كلما ساورها في تلك اللحظة شيء في عقله) :

ـ اي قطار ؟.. اي خط ؟..

استدرك الرجل فجأة وقال : اوه .. هذا الكابوس المزعج ... هذا الحلم المزعج ..
ونهض من السرير مسرعا .

كان لا بد ان يصل الى مقر عمله في الساعة الثامنة . (تذكر الشمس وقد اخذت شكل زاوية منفرجة). وكان لا بد ان يسنفل قطار الصباح الوحيد . لبس ثيابه على عجل ، والتهم ما وجده جاهزا من طعام ، وهرول مسرعا نحو المحطة . بدأ يركض مثل ثور هائج، وفوقه شمس تقترب منه قليلا ، وقد انفتحت رجلاها وحاصرته بين عمودي رقم منفرج على شكل (ثمانية) . كان عليه ان يصل الى العمل قبل ان ينطبق عليه عمودا الرقم المتحرك .

هو يركض . والزاوية المنفرجة تضيق وتصبح اكثر حدة . العرق ينزف من عروقه مثل نوافير صغيرة للماء المالح ، ويكوّن فوق عينيه غشاوة تجعل المسافات امامه هلامية او متأرجحة او مائلة . مد يده ليمسح هذه الغشاوة عن عينيه ، فرأى انه على قاب خطوتين من الاختناق ، وان بينه وبين المحطة خطوتين . لكنه وصل قبل ان ينطبق عمودا الرقم الشمسي على عنقه . وصعد في عربة الدرجة الثالثة ، وزرك نفسه بين عمال التراحيل .

كان الرجل قد بدأ ينمايل الى الامام والى الخلف تمايلا خفيفا وعذبا ، مع حركة القطار البطيئة ، حين بادره محمود قائلا ، على مسمع من رفاقه :

ـ هل ما زلنا على الاتفاق ؟

قال الرجل ، نعم .. (وأردف) شرط ان يشترك الجميع بالعملية ، بعد الضربة الاولى .

وحين التفت محمود الى المجموعة من حوله ، بدرت منها همهمات متفرقة ، نعم .. نعم .. بالطبع .. كلنا سوية .

قال محمود : اذن : حين يصعد (رئيس العنبر) ـ واضاف بصوت خافت ، ولكنه شرس ومحتقن (هذا الخنزير الفذر) .. حين يصعد في المحطة التالية ، ويأخذ مكانه المعتاد ، في تلك الزاوية الشرقية، قرب الباب ، ويعاود القطار سيره .. وفي اللحظة التي يصل فيها القطار الى سرعته القصوى ، ويطلق صفارته المعهودة ، تتقدم منه خفية ، وتضربه ، من الخلف ، بهذه الهراوة المدببة على راسه ، ثم تحيطون به جميعكم .. نحيط به جميعا .. فنكتم انفاسه ، ونقذفه من النافذة ، ويختلط دمه النجس بهذا التراب الطاهر ..

لم تبدر من المجتمعين سوى همهمات خافتة ، ثم خيم على المجموعة صمت شبيه بتكوّن العاصفة .

(٤)

القطار يقترب من المحطة التالية . يخفف سرعته . يقف . ها هو (رئيس العنبر) يصعد منتفخا وعابسا . انه لا يلقي التحية كالعادة. فيبادره العمال بالقائها . كان احيانا لا يرد التحية ، واحيانا يردها بتثاقل مفتعل . يأخذ رئيس العنبر مكانه المعتاد . يسترخي على المقعد . يزداد انتفاخا . ثم يطبق عينيه ، ويدخل في نوم هادىء .

حين بدأ القطار يئن أنينا سريعا ، وخافتا كحيوان مظلوم ، لم تكن قطرات من الدم ، بعد ، قد لطخت زوايا العجلات .

بيروت

روايات ومسرحيات مترجمة

من منشورات دار الآداب

ابك يابلدي الحبيب	الآن بيتون	الشوارع المارية	قاسكو براتوليني
زوربا	نيكوس كازنتزاكي	الجحيم	هنري باربوس
انا وهو	البرتو مورافيا	ماريانا	ثوركا
الانتباه	البرتو مورافيا	هيروشيما حبيبي	مارغريت دورا
مدام بوفاري	غوستاف فلوبير	نساء طروادة	جان بول سارتر
السفير	موريس وبست	تمت اللعبة	» »
قصة حب	اريك سيغال	مسرحيات سارتر	» »
الموت حبا	بيار دوشين	الغثيان	» »
الموت السعيد	البير كامو	دروب الحرية ٢/١	» »
العراب	ماريو بوزو		